



الدكتور أسعد حمود "دمشق"

وكان القادة الصهاينة والقيمين من انه لن يصدر عن العرب والمسلمين رد فعل جدي، لاحتراق المسجد الأقصى، وأن الرد لن يكون أكثر من احتجاجات وصيحات لن تلبث أن تهدأ، ولن يكون لها على الصهاينة اثر ولا ضرر.

وكان موسى ديان هو القائد الصهيوني الذي دأبت الاحلام الخادمة أجفانه، بل يقترن اسمه في التاريخ بتحقيق دولة (اسرائيل الكبرى)، والتضاء على كل اثر للعرب والاسلام فيها. وان نصر حزيران الرخيص الذي حققته قيادته على العرب، قد فاق جميع تقديراته وآماله، فظن أن ما حملت اسرائيل بتحقيقه، على مدى اجيال وقرون، اصبح، بعد نصر حزيران، امرا سهلا المنال قريب التحقيق، فطمع بأن يكون هو ذلك البطل المحقق لاحلام تومه.

واندفع ديان وعصابته في مفاخراتهم، وجرائمهم، التي بلغت ذروتها في احراق المسجد الأقصى، ليعجموا هود العرب والمسلمين، وليجربوا رد فعلهم، حتى اذا وجدوه هزيبا ضعيفا، عادوا الكرة لاحتراقه بشكل تام ونهائسي.

وفي الواقع كان رد فعل العرب والمسلمين ضعيفا، لا يتناسب وقدسية المكان الذي اشعل الصهاينة فيه النار ودمسوه. ولكن يجب ان نعترف للامانة والحقيقة، بأن العرب انفسهم - اصحاب المصلحة المباشرة في ارض فلسطين، وفي الحفاظ على قدسية المسجد الأقصى - لم يحسنوا الافادة من هذه المناسبة، ولم يحسنوا

ابطر الصهيونيين فشل العرب عام 1948، في القضاء على احلامهم في اقامة دولة لهم في قلب العالم العربي، في البقعة المقدسة فلسطين، وواد في جرائمهم نجاح هدوانهم على مصر عام 1956، اذ اشتركت معهم في المعركة دولتان كبيرتان هما انكثرا وفرنسا، بينما ترك العرب مصر لمصيرها، تواجه العدوان لوحدها.

وبلغت النشوة والخيلاء بالصهيونيين حد الجنون اثر ظفرهم، غدرا وغيلة، بالعرب في معركة حزيران 1967 فاستخفوا بالعرب وقدراتهم على الحفاظ على ما تحت ايديهم من ارض واثاث، فانطلقت من افواه المسؤولين الصهاينة اصوات وصيحات، تفضح بوضوح ودون تورية او تمويه، المخطط الصهيوني البعيد المدى، من ضم والحاق وتوسيع على حساب الارض العربية. ولم يستبعدوا التفكير في الاعتداء على الاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز.

اما القدس فقد اعتبر الصهاينة امرها منتهيا، فامروا باحراق المسجد الأقصى، الذي يمثل احد المقدسات الكبرى للعالم الاسلامي، غير مقيمين وزنا لرد فعل العرب، ولا لغضب المسلمين المنتشرين في اسقاع الارض. اذ كانوا يريدون ان ينتهوا، وبأسرع ما يمكن، من القضاء على كل ما يربط العرب والمسلمين بالقدس، والارض المقدسة فلسطين، ليسهل عليهم امر ترحيل من تبقى من العرب في القدس والمدن الفلسطينية الاخرى، الى البلاد العربية.

ولا شك في أن السعي الجدي لتحقيق التنسيق والتقارب بين مصر وليبيا والسودان ، ستتلهوه خطوات أخرى نحو الوحدة بين الاقطار الثلاثة ، تجعل تلك المنطقة المتلاصقة ، التي تضم قرابة خمسة ملايين كيلومتر مربع من الأرض وخمسين مليوناً من البشر ، كتلة واحدة في المعركة ، ونواة تستقطب الاقطار العربية الواحدة بعد الأخرى ، لتجتمع شملها من جديد .

واننا لا نشك في أن التصريحات الوقحة التي صدرت وتصدر كل يوم ، عن قادة المنصرين في اسرائيل ، والتي تكشف عن نواياهم واهدافهم ، واطماعهم التوسعية ، وان تدبيرهم للمقدسات الاسلامية والمسيحية في القدس والخليل وبيت لحم والناصرة ، واعتداءاتهم المتكررة على الوطن العربي ، ستكون بدء النهاية بالنسبة لهذا الجسم الغريب الذي اريد زرعه في جسم الامة العربية ، ويوم ينهار هذا الكيان القائم خلافا لمنطق التاريخ ، ولعقيلة العصر ، سينال القادة الغامرون جزاء وفاقا على ما اقترفوه بحق الانسانية والمقدسات من جرائم .

وليس زعماء اسرائيل هم أول من طرا على هذا الأرض وحاول تدنيس مقدساتها ، والاساءة الى شعوبها ، وليس موسى ديان وعصاته هم أول الغامرين الذين اغرامهم التفرق ، والنزعات العارضة بين شعوب العالمين الاسلامي والعربي ، بالاستطالة على العرب والمسلمين وعلى مقدساتهم ، وبالسخريه من قدراتهم ، وامكاناتهم في رد الأذى والحق الهزيمة بالمتدين . فمئذ قرابة ثمانمئة عام حل في جنوبي البحر الميت ، مفامر صليبي غادر ، غرته انتصارات عارضة ، حققها الصليبيون على المسلمين في المنطقة ، فظن ان بإمكانه تدنيس المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة ، كما دنس من سبقوه المقدسات الاسلامية في القدس والخليل ، واتخذوا من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة مربطاً للخيرول ومهجماً للجنود .

وكان من نتيجة ذلك أن فتحت جرائم ذلك الغامر عبون العرب والمسلمين على حقيقة الخطر المحقق بهم وبمقدساتهم في المنطقة كلها ، وادركوا انه ما دام هناك مستقر لجسم غريب في ارضهم ، فلا أمن ولا سلام ولا اطمئنان ، فتحررت اوتال تتلو اوتال من المجاهدين ، من كل أرض من أراضي الاسلام ، مليئة دعوة الجهاد ، تقايل وتحارب ، حتى كانت معركة حطين ، التي دفع ذلك الغامر قومه الى خوضها وهم

عرض قضيتهم ، ولم يعرفوا ما يريدون بالضبط من وراء دعوة اقطاب المسلمين الى مؤتمر الرباط . وفي اعتقادنا انهم لو اتبعوا صيحة الجهاد التي اطلقوها ، بتنظيم جدي لايفاد متطوعة ومحاربيسن من العالم الاسلامي ، لراينا اليوم زحوا فتلوها زحوف من الابطال المستميتين ، يتدفقون على ميدان المعركة ، من كل أرض انطلقت من مآذنها صيحة (الله اكبر) ، ملبين دامي الجهاد المقدس ، ليقضوا على العدو الذي دنس مقدساتهم ، او لينالوا اجر الشهداء على الأرض المقدسة في المعركة المقدسة .

ان الصهيونيين يستمدون على العرب كل من يستطيعون ، باسم الدين ، وباسم القومية ، وباسم المصالح الاقتصادية والسياسية . الخ ، لا يفرطون في عون يائيمهم وان صفر . ونحن نستبعد عونا كبيرا ، بل معيناً من العون لا ينضب ، كان يمكن ان يكون في كفتنا ، وكان يمكن ان يؤثر تأثيراً فعلياً وحقيقياً على اولئك الذين يدعمون اسرائيل ، ويمكنون لها ، لو اننا احسنا التصرف ، وعرفنا ما نريد ، الا وهو عون العالم الاسلامي ، ذي المصلحة الحقيقية في ان لا يكون في المنطقة خطر يهدد مقدسات الاسلام في فلسطين والحجاز .

وعلى كل حال فقد كان لاحراق المسجد الأقصى ، ولتصريحات زعماء اسرائيل وتهديداتهم فائدة اذ فتحت عبون العرب على حقيقة ما يراد بهم ، وعرفتهم بحقيقة وضعهم ، الذي يفري الاعداء بهم . فادركوا انه ما لم يتم تسامح حقيقي بين الدول العربية ، بانتظار قيام وحدة بين اقطارهم ، تستطيع اقامة دولة عربية وجيش مدرب قادر على استيعاب العلم الحديث والسلاح الحديث - فانهم لن يستطيعوا رد الطامعين بهم ، وستبقى حفنة من الغامرين ، تستخف بهم ، وتستهزيء بهم وتتحداهم في كل يوم وفي كل ساعة ، وتضربهم في عقر دارهم كلما شاء لها هواها ان تلهو بذلك

وقد كانت اول بادرة للتضامن تصدر عن العرب ، وتشمر برفض هذا الواقع المؤلم ، هي الاجماع في مؤتمر الخرطوم ، الذي عقد اثر النكسة ، على دعم الامكانيات المادية والمسكرية لدول المواجهة مع العدو ، وعلى رفض التفاوض مع العدو ، وعلى رفض الصلح معه . وتلت ذلك ثورتان في ليبيا والسودان ، كان من شأنهما وضع امكانيات القطرين الشقيقتين في الميزان العربي الفعلي في المعركة المضيرية .

المهود والمواثيق على القادة الصليبيين بان يعيدوا اليه ما يحتلونه مما كان تابعا في الماضي للامبراطورية البيزنطية ، وخصوصا انطاكية .

ولكن بوهمند لم يكن يفكر في غير مصالحه الخاصة، فرفض الاستماع الى النصائح والاعتراضات ، وتمكن بحيله ومداوراته ، من الفوز بامارة انطاكية، رغم معارضة بعض زملائه .

وسار الامراء الصليبيون الآخرون جنوبا ، واقام كل منهم امارة لنفسه ، فكانت هناك مملكة في القدس، وامارة في طرابلس ، وامارة في الرها (اورفه) .

واصبح بوهمند بلاء على المسلمين من جيرانه، وكان اكثر ضغطه منصبا على حلب المجاورة لانطاكية ، ثم اسر بوهمند من قبل الغازي ابن الدانشمند ، امير التركمان في الاناضول ، ولكن لم يلبث ان فاضحه واطلق سراحه لقاء فدية كبيرة ، فعاد بوهمند يتابع اعتداءاته نحو من حوله من المسلمين والبيزنطيين .

وتقم البيزنطيون على بوهمند حنثه بيمينسه ، واتكاهه لحقهم في السيادة على انطاكية ، فافتنموا فرصة هزيمة الفرنج - وفيهم بوهمند - في معركة حران عام 1104 م، واسرعوا بحثون الخطا نحو كيليكيا واللاذقية التابعتين لامارة بوهمند . فخارت قوى بوهمند وشعر بالخطر الشديد المحدق به . فهدد بالامارة الى ابن اخته تانكريد ، وذهب الى اوربسا ، ليستشير حملة صليبية اخرى ، هدفها انقاذ انطاكية من خطر المسلمين والبيزنطيين . ولكن بوهمند ذهب ولم يعد ، وتزوج هناك من اميرة فرنسية رزق منها بولد يعرفه التاريخ باسم بوهمند الثاني .

وفي الفترة بين ذهاب بوهمند الاول الى اوربا ، ووصول بوهمند الثاني الى الشرق ، تعاقب على انطاكية اميران نورمنديان ، احدهما يدعى تانكريد ، والاخر روجيه ، وقد قضى المسلمون على روجيه وعلى جيشه في معركة البلاط على الطريق بين حلب وانطاكية .

وفي عام 1128 م ، وصل الى انطاكية بوهمند الثاني ، وهو شاب فارغ الطول ، قوي البنية ، جميل الملامح ، قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، واتقن استعمال السلاح ، حتى بد اقرانه به . وما هو الا ان تسلم امارة انطاكية حتى تزوج باليس الابنة الثانية لملك القدس بودوان الثاني ، وباشسر الاشارة على جبراته المسلمين ، ومباغتة الحصون القريبة من

لها كارهون ، فوقع في يد صلاح الدين اسيرا ، فلم يعف عنه ، لانه اعتبره مجرما ، وقاطع طريق ، ولم يعتبره محاربا يحترم قوانين الحرب .

ومنذ ذلك اليوم ادرك الصليبيون ان دولتهم قد اصبحت في حكم المقضي عليها بالزوال ، وتابح من خلفوا صلاح الدين المهمة التي بداها ذلك البطل ، حتى قذفوا بآخر الصليبيين في البحر ، بعد مائة وهشتر سنين من الحروب المتواصلة من يوم حطين .

وها نحن نسوق قصة ذلك المغامر الصليبي (ارناط) او (رينودوشا تيون) لعلها ان يكون فيها عظة للعرب ، وهبرة للمغامرين .

— ارناط —

تدفقت سيول الصليبيين على المشرق عام 1097 م (490 هـ) تريد - استجابة لنداء الكنيسة - استرجاع القدس من ايدي المسلمين ؛ ووجد الامراء المغامرون في اوربا الفرصة سانحة ، فتبنوا المشروع لعاهم يفوزون بامارات واقطاعات في الشرق ، مستغلين حماسة البسطاء والسذج ممن دفعتهم الحماسة الدينية لتحقيق رغبات الكنيسة . وكان من بين اولئك الامراء المغامرين ، امير نورمندي الاصل استقر اباؤه في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، وكان من نصيبه في الميراث ارضا صغيرة في جنوبي ايطاليا لا ترضي اطماعه الواسعة ، فاسرع بوهمند اوييمتد كما تسميه الرواية على راس من تجميع تحت لوائه ، ينضم الى الجيوش الصليبية في الجانب الشرقي من مضيق البوسفور .

وبعد حروب واهوال وفظائع ومذابح ، تمكن ثلاثة ارباع المليون من الصليبيين من شق طريقهم الى سوريا، وكان اول ما احتلوه فيها، مدينة انطاكية، التي دافع عنها حمايتها المسلمون اشرف دفاع واشجمه طوال عشرة اشهر . ولولا الخيانة التي اقرت اهدم القادة الداخليين حديثا في الاسلام ، لما تمكن الفرنج من احتلالها ، ولتبدل سير التاريخ كله في المنطقة .

وطمع بوهمند في ان يقيم لنفسه امارة في انطاكية وخاف رفاقه ، القادة الآخرون ، ان تفسد اطماع بوهمند خططهم الرامية الى التعاون مع الامبراطور البيزنطي ، اسحق كومنين ، وضرب المسلمين نقوة صليبية بيزنطية موحدة . وكان الامبراطور قد اخذ

أراضيه ، فحقق بعض النجاح ، وقد زاد ذلك النجاح المحدود في صلفه وفروره .

وفي يوم من أيام شهر شباط (فبراير) 1131 ، اتجه بوهمند من أنطاكية إلى كيليكيا ، على رأس قوة من فرسانه ، يريد أن يلحق به الإمارة الأرمنية ، بعد أن توفي صاحبها وابنه ، فانقض عليهم جيش من التركمان بقيادة الغازي بن الدانشمند (أسر بوهمند الأول عام 1101 م) ، وأحاط بهم إحاطة تامة ، وأنهال عليهم رميا بالنبال ، فخروا على الأرض صرعى ، وكانهم أعجاز نخل منقعر ، وفيهم بوهمند نفسه .

ولم يترك بوهمند من الأولاد غير بنت صغيرة لا يتجاوز عمرها السنتين ، أسماها (كونستانس) فتسلمت أمها الاميرة (اليس) إدارة الإمارة ، تحت وصاية ملك القدس .

ومرت الأيام ثقلا على الاميرة الشابة في إدارة إمارة واسعة ، يطمع بها جيرانها البيزنطيون من الشمال ، والمسلمون من الشرق . وكان خطر المسلمين قد أصبح مقلقا فعلا ، إذ تسلم أمارتي الموصل وحلب أمير شهم ، بعيد الهمة ، قوي المزيمة ، هو عماد الدين زنكي ، وقرر أن يخوض بالمسلمين حربا ضروسا مع الفرنج ، ليزيل ما تجمع في نفس المسلمين من هيبة للفرنج في ميدان الحرب . فسار بجيشه إلى حصن قريب من حلب ، هو حصن الأتاب ، الذي طالما ارمب فرسانه أهل حلب ، وخربوا زروعهم ، ونهبوا أموالهم .

وتجمع الفرنج للدفاع عن الحصن ، وسأل زنكي رجاله ماذا يرتأون . فأشار عليه بعضهم بالانسحاب من الأرض التي يحتلها العدو ، والعودة إلى حلب ، وأشار عليه آخرون بالتراجع إلى أراضي حلب ، فإذا لحق بهم الفرنج ، أمكنهم انشباب المعركة في أرض إسلامية .

وكان زنكي قد قرر في نفسه خوض المعركة مهما كانت النتائج ، فقال لرجالته ، أن الفرنج قد استطالوا على المسلمين كثيرا ، وقد أصبح مألوسا لديهم أن يروا تراجع المسلمين واحجامهم من القتال كلما راوا تجمع الفرنج ، ولذلك فإنه يرى أن يذيق المسلمون بأسهم للفرنج ، ليذكروا ذلك في المستقبل ويقدروه . وأنه يرى أن أي تراجع أمام الفرنج سيجرئهم ، ويضعف من هزيمة المقاتلين المسلمين . وخلص من ذلك إلى القول بأنه يرى أن يقدم المسلمون

للقاء العدو مصممين على النصر ، وما النصر إلا من عند الله .

وتقدم المسلمون ، وقضوا على الجيش الصليبي واكثروا فيه القتل ، حتى ذكر ابن الأثير ، أنه مر في أرض المعركة ليلا ، بعد أكثر من سبعمين عاما ، فقيل له أن عظام القتلى الفرنج ما زالت منتشرة في تلك الأرض . وعاد المسلمون إلى حصن الأتاب فتسلموه من الفرنج ، فأخربوه حتى سووا بناءه بالتراب ، لكيلا يتركوا الرما يرمز إلى الرهبة في قلوب أهل حلب ، ومن حولهم من المسلمين .

وخافت الاميرة الشابة على ملكها ، فأخذت تراسل زنكي سرا ، وتضع نفسها تحت حمايته ، فأساء ذلك الفرنج الذين تسربت إليهم أنباء اتصالاتها بالمسلمين . وأخذ الجميع يفكرون في وسيلة يتمكنون بها من إبعاد الاميرة (اليس) عن حكم أنطاكية ، وقد وجدوا أن خير الوسائل لذلك هي البحث عن زوج للاميرة الطفلة الوارثة (كونستانس) .

ووجدوا لها أخيرا شابا جميلا من نبله فرنسا ، هو الكونت (ريمون دوبواتيه) فقدم إلى أنطاكية على أنه سيكون زوجا للاميرة (اليس) ، لكي يأمناها معارضتها في دخول ريمون إلى أنطاكية .

ولم يمض وقت طويل حتى فوجئت الاميرة بمقد قران ريمون على ابنتها كونستانس ، فانسحبت إلى اللادقية .

تسلم ريمون دوبواتيه إدارة أنطاكية ، نيابة عن زوجته ، وكان فارسا نجدا ، ولكن خصائصه ومميزاته ضاعت أمام هتكة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، الذي خلف أباه في حكم حلب ، في عام 1146م فانتزعا من الفرنج جميع ما كانوا يحتلونهم شرقي العاصي ، كما انتزعا منهم جميع إمارة الرها .

وفي 29 حزيران (يونيو) 1149 م ، ظفر نور الدين محمود بجيش أنطاكية ، عند قرية (أتب) (القريبة من جسر الشغور) وأباده تقريبا ، وكان ريمون بين القتلى . فأصبحت كونستانس وصية على ابنتها بوهمند .

وقد شعرت الاميرة ، لأول مرة ، بمد موت زوجها بلذة الحكم . وسر البطريرك لشموها هذا ، فأخذ يشجعها على عدم الزواج مرة أخرى ، لكيلا

يأتي امير جديد يقضي عليه بالاقتصاص على عمله
الديني وحسب .

وحاول ملك القدس - وهو ابن خالة كونستانس -
أن يجد لها زوجا يحمره من مسؤولية الاشراف على
انطاكية ، ويستطيع النهوض بأعباء الدفاع عنها في
تلك الايام العصيبة من تاريخ امارات الفرنج في الشرق ،
فلم تقبل الاميرة بروج ، وآثرت الاستمرار في حياتها
طليقة من قيود الزواج .

وسارت الامور سيرها العادي ، ونور الدين
محمود يلح على ما بيد الفرنج من مدن وحصون ، في
كل يوم ، وقابو الفرنج في انطاكية وفي غيرها ، ترتجف
هلم ، كلما نظروا الى المستقبل المظلم .

لقاء الاميرة (باوناط)

وفي ذات يوم من اواخر عام 1152 ، لمحنت
الاميرة الشابة فارسا يدل زيه على انه حديث عهد
بالوصول الى الشرق ، فاهجبت به واستدمته اليها ،
وتعرفت عليه ، فزاد اعجابها به . ولم يكن ذلك
الشاب غير الغامر رينو دوشاتيون (او ارناط كما
تسميه الرواية العربية) الذي سيجر الممالك الصليبية
كلها الى الهاوية في معركة حطين ، وهو الذي سيرجده
غدره ومحاولاته العبث بالمقدسات الى الموت بيد
الرجل الرحيم صلاح الدين الايوبي .

وتكررت مقابلات الاميرة والفارس الفتى ، حتى
اغرمت به وانفتحت معه على الزواج ، ووجد الغامر الجريء
في هذا الغرام فرصة تحقق له اكثر مما كان يطمح به
ويحلم ، فلم يشأ ان يضيئها . وكان لا بد - بحسب
التقاليد بام النظام الانطاقي - من الحصول على
موافقة ملك القدس ، بودوان الثالث على الزواج ،
بصفته الوصي الشرعي على الاميرة وعلى الامارة ،
وكان بودوان اذ ذلك منهمكا في حصار ميناء مستقلان في
جنوبي فلسطين ، - ومستقلان هي آخر ما تبقى بيد
الفاطميين من ملك في فلسطين - فطار اليه الفارس
الغامر ، يرجوه الموافقة على الزواج .

وعجب الملك من غرابة اطوار ابنة خالته ، كيف
تقبل الزواج من شاب مغمور ، لا ثروة له ولا جاه ،
بينما سبق لها ان رفضت الزواج بخيرة الامراء والنبلاء
الذين عرضوا عليها في الماضي ؟ مع انه كان من الممكن
ان يكون في ثراء هؤلاء النبلاء ، ونفوذ بيوتاتهم ، واتساع

املاكهم ، خير عون لامارة انطاكية ، وللمالك الصليبية
في الشرق ، في حربهم الفروس المستمرة منذ
خمس سنين . ولكن الملك الذي يشس من موضوع
زواج (كونستانس) ، اراد ان يتحرر من اعباء الدفاع
عن انطاكية ، فوافق على الزواج ، بعد ان جثا (ارناط)
على قدميه ضارعا متوسلا .

تم الزواج الاسطوري ، وتسلم ارناط حكم
انطاكية فساسها بمقلية المفامر الفظ ، وكان اول ما
استهل به عهده في الحكم ، هو الانتقام من بطريك
انطاكية (ايمرى دو ليموج) .

لقد كان البطريرك شيخا هرما يوم تم الزواج ،
وكان يشارك الاميرة مشاركة فعلية في ادارة الامارة ،
فاستمر الحكم والسلطة وسر بهما ايما سرور ، لذلك
وجد من مصلحته ان تبقى الاميرة دون زوج ، تدير
الامارة ، ليكون هو الحاكم الفعلي ، والموجه الاول ،
تصدر الامور في انطاكية عن رايه ونهيه .

ولما تم الزواج فوجيء البطريرك به ، فامتعض
وساءه ان يصبح تابعا لجندي مغمور ، ليس له من
الميزات غير غرام الاميرة الطائش به ، فاطلق لسانه
فيه ، وظهر له الاحتقار والازدراء ، وهو لا يعلم ان
عدوه الجديد لا تقف قسوته عند حد .

قسوة ارناط وغدره

وسرعان ما تطور الصراع بين الرجلين ، فامر
ارناط بالقبض على البطريرك ، وجلده في الساحة
العامة حتى ادمى جلده ، ثم امر به فشد الى وتد ،
وهو عاري الجسد ، تحت اشعة الشمس اللاهبة ،
وطلي جلده بالمسل ، لتتجمع عليه الحشرات والهوام ،
تلسمه وتشرب من دمه .

وقد استاء الناس في انطاكية من هذه الوحشية ،
التي يعامل بها اميرهم الجديد رجلا هرما له مكانته
الدينية في نفوس الناس ، وله فضله في الدفاع عن
انطاكية ، في ايام الشدة ، بعد مصرع ريمون دو بواتيه
ووصلت انباء هذه الماملة الفظة الى ملك القدس ،
فاوفد على جناح السرعة رسولا ، يستنكر عمل رينو
ويستغفمه ، ويأمره باطلاق سراح البطريرك ، ففعل .
ثم بدا لارناط ان يتفاهم مع الامبراطورية البيزنطية
لمحاربة امراء الارمن في كيليكيا ، لعله يفوز بشيء من
اراضيهم ، ولكنه سرعان ما انقلب على البيزنطيين ،

وتفاهم مع الارمن على محاربتهم ، وأعد أرناط وطوروس أمير الارمن حملة مشتركة على جزيرة قبرص - وكانت مقاطعة بيزنطية - فلم يشعر اهل الجزيرة الا والقوات الصليبية والارمنية تهبط في اراضيهم وتنكل بهم .

وقد ارتكبت القوات الغازية من الفطائع والقبايح ما تقشعر لهوله الابدان ، فصلمت آذاناً ، وجدمت انوفا ، وهتكت اعراضاً ، ونهبت اموالاً لا يحصوها عد . وعاد المغامر ان ايديهما مثقلة بالتسبي والغنائم .

وعرف أرناط بما ينتويه بودوان من تسليم شيزر وما حولها للكونت دوفلاندر ، فاستاء من ذلك واعترض على هذه الفكرة ، مدعياً ان شيزر وما حولها تدخل في نطاق المجال الحيوي لانطاكية وان على تيري ، اذا تسلم اماره شيزر واواسط العاصي ، ان يكون تابعاً له حسب التسلسل الاقطاعي . واستاء تيري بدوره من هذه الفكرة ، فانه لم يكن يخطر له على بال ، وهو المتحدر من امرق البيوتات واكرمها ، ان يدين بالولاء والطاعة لمغامر افاق حملته الحظ الى كرسي الامارة ، واعلم رفضه لما اقترحه أرناط . واشتد الخلاف في المسكر الصليبي حتى كاد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه ، فلم يجد بودوان بدا من رفع الحصار والانسحاب من شيزر لكيلا يكون احتلالها سبباً في نشوب حرب اهلية بين الصليبيين .

خسوع الجبناء

استاء الامبراطور مانويل كومنين ، اشد الاستياء من هجوم أرناط وزميله الارمني على قبرص ، ومن الفطائع التي ارتكبتها ، ولكن ظروف الامبراطورية ، وما كانت تواجهه من مشاكل في أوروبا ، لم تكن تسمح له اذ ذاك بالتفكير في معاقبة المجرمين .

ولكن بعد ان تحرر الامبراطور من الكثير من مشاغفه ، تحرك في عام 1158 م ، على رأس جيش كبير الى كيليكيا ، فسحق امارات الارمن فيها ، واستولى على امهات المدن ، واقام معسكره قرب المصيصة بانتظار تحركه لمعاقبة أرناط .

وعلم هذا بما ينتويه الامبراطور ، فجزع جزع الجبناء المجرمين ، وخارت قواه ، وشل تفكيره ، ولم يعد يعرف ما يصنع ، بعد ان أدرك ان جرائمه قد أسلمته لمصيره ، وانه لن يجد بسببها ، معينا له في محنته . وبينما كانت هواجس أرناط تعذبه وتقص مضجعه ، لا حت لاحد المقربين منه فكرة ، وجد فيها الفرج والخلاص ، وهي : لماذا لا يخرج أرناط الى معسكر الامبراطور تاباً معتذراً ، ويضع نفسه تحت رحمته وتصرفه ، ويعلم له الاعتراف بطاعته والتبعية له . فقد سبق لوالد الامبراطور ان عفى عن ريمون

وتفاهم مع الارمن على محاربتهم ، وأعد أرناط وطوروس أمير الارمن حملة مشتركة على جزيرة قبرص - وكانت مقاطعة بيزنطية - فلم يشعر اهل الجزيرة الا والقوات الصليبية والارمنية تهبط في اراضيهم وتنكل بهم .

وقد ارتكبت القوات الغازية من الفطائع والقبايح ما تقشعر لهوله الابدان ، فصلمت آذاناً ، وجدمت انوفا ، وهتكت اعراضاً ، ونهبت اموالاً لا يحصوها عد . وعاد المغامر ان ايديهما مثقلة بالتسبي والغنائم .

طمع أرناط وانانيته افشلا مخطط الصليبيين لاحتلال شيزر

كانت شيزر قلعة حصينة تقوم على الضفة اليسرى للعاصي ، وقد اعجز الصليبيين احتلالها ، بفضل دفاع امرائها ، آل منقذ وبفضل موقعها الجغرافي ، ومثانة أسوارها . وفي عام 1157 م ، ضربت هزة أرضية مدن سوريا فاخرت اكثرها ، وكان الخراب الذي اصاب شيزر كبيراً ، وكال آل منقذ قد تجمموا في قصرهم لحضور حفل فيه ، فانهار عليهم القصر ، ولم ينج منهم غير اسامة الذي كان منفياً خارج شيزر ، وغير امرأة وطفل منهم ، اخرجوا من تحت الانقاض .

وفي ذلك العام ، واثر الهوة التي الحقت بالمدن السورية ، وقع أمير سوريا وبطلها نور الدين محمود مريضاً ، حتى أشفى على الموت ، فبدأ للصليبيين ان يفتنموا الفرصة ، ليحتلوا شيزر ، ويشتبوا اقدامهم في حوض العاصي من جديد .

وبدا للملك بودوان الثالث ان يحتل ما يمكن احتلاله من اواسط حوض العاصي ليسلمه الى الكونت (تيري دوفلاندر) يقيم له اماره فيه ، تفيد من الامكانات الضخمة التي يتمتع بها بيت الكونت وامارته في فرنسا ، وبذلك يستطيع تخفيف العبء الثقيل الذي أصبحت تنوء به الامارات القائمة في الشمال ، بعد القضاء على اماره الرها .

وفي اوائل تشرين الاول (اكتوبر) من عام 1157 م تجمع حول شيزر جميع الامراء الصليبيين ، مع جيش ارمني يدممهم ويعمل معهم ، وانضم اليهم الكونت تيري دو فلاندر ، ومن معه من الفرسان القادمين للحج والنجدة .

دوبوايه ، واكتفى بالاعتراف بالتبعية والولاء ، ورفض علم الامبراطورية على قلعة انطاكية .

وبدت الفكرة لارناط اخاذة . فانه اذا استطاع ان يدفع العقاب عن نفسه ، وان يؤجل احتلال انطاكية ولو الى حين ، يكون قد حقق كسبا لا يستهان به . فقرر السير بنفسه الى المعسكر الامبراطوري ، وارسل قبله رسولا من رجال الدين ، يمهّد السبيل ، ويلطف الجو . وتمكن الرسول ، بحذقه ودهائه وجميل امتدازه من تهدئة نائرة الامبراطور ، ومن تخفيف ثقله على ارناسط .

ووصل ارناسط الى المصيصة ، وكان عليه ان يجتاز المدينة كلها ، ليصل الى المعسكر الامبراطوري ، فترجل عن فرسه ، وخلع نعليه ، ولبس قميصا يكشف عن ذراعيه حتى المرفقين ، وامسك بسيفه من مقدمة النصل ، ليقدّم قبضته الى الامبراطور ، وسار وهو على هذه الحالة المزرية ، من الذل والاستخذاء في شوارع المصيصة ، التي اصطف الناس فيها على جانبي الطريق ، ليتفرجوا على هذا الجبان الدليل الغادر المتقلب .

ورضى الامبراطور ، ماتم من خضوع ارناسط ، واكتفى بالاعتراف بتبعية الامارة له والسماح له باقامة حامية بيزنطية في قلعة انطاكية ، كرمز لاثبات حقه .

أسر المغامر

وبعد ان رحل الامبراطور عن كيليكيا ، تنفس ارناسط الصعداء ، ونسى ما لقيه من ذل ومهانة ، وعاد يتابع حياته المعتادة ، حياة المغامر الشريـر . وفي يوم من ايام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1160 م ، علم ارناسط ان قطعانا كبيرة من الماشية ترمى في السهول الواقعة بين عينتاب ومرعش ، وان هذه القطعان لا تحرسها قوات اسلامية ، وكانت القطعان في اكثريتها يملكها ارمن ويونانيون من سكان المناطق التي استرجعها المسلمون من الفرنج حديثا ، ولكن ارناسط لم يكن يهمنه من يملك القطعان ، وانما الذي يهمنه ان يحقق مفعما ، دون ان يتعرض لخطر قتال .

وبينما كان الرعاة آمنين مطمئنين ، انقض عليهم ارناسط وفرسانه ، فاسروهم ، واستاقوا قطعانهم فرحين بما حققوه من كسب . ولكن فرحتهم لم تطل كثيرا ، اذ ان انباء الهجوم الغادر ، وصلت الى نائب

نور الدين في حلب ، مجد الدين ابي بكر بن الدايدة ، فاستنفر قواته ، وطار بها ليقطع الطريق على المغامرين .

وعلم ارناسط وصحبه بخروج المسلمين اليهم ، فخاف اصحابه ، ونصحوه بان يتخلى عن المنجم الضخم ، وان ينسحب عائدا الى انطاكية . ولكن ارناسط اراد ان يتظاهر بالجرأة الكاذبة امام صحبه ، فرفض الفكرة ، وامر فرسانه بسوق القطعان ، بين صفيين من الجند ، وان يحثوا الخطا الى انطاكية ، وسار هو مع قوة من رجاله في الساقية ليحميها ويدافع عنها .

وبينما كان ارناسط وصحبه يسرون مسرعين قرب قرية الجومه ، شمالي غربي هزائر ، انقض عليهم فرسان حلب ، وفتكوا فيهم فتكا ذريعا ، وقتلوا اكثرهم ، وجبن الاخرون فاستسلموا ، وكان بين المستسلمين ارناسط . ونجا قليلون هاربين ، يخبرون فرنج انطاكية بانباء المعركة ومصير ارناسط .

والقى ابو بكر بارناسط وصحبه على ظهور الجمال ، وكانهم بعض المتاع ، ودخلوا بهم حلب ، فاسرع الناس يتفرجون على هذا المشهد الذي لم يعد يثير فضولهم كثيرا ، لكثرة ما تكرر منذ ان تولى عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود امور حلب . ووصلت الجمال باحمالها امام قلعة حلب التاريخية ، فانزلت الاحمال ، واستيق ارناسط الى سجنها ليقضي فيه ستة عشر عاما من حياته الشقية .

وبعد ان تولى نور الدين محمود ، موحد سوريا ومصر ، كان ابنه الملك الصالح ، صغيرا ، فاختلف الامراء من حوله ، ايهم يكفله ، ليبسط سلطانه على الدولة . وتحرك صلاح الدين نائب نور الدين في مصر ، يريد اثبات حقه في تولي رعاية ابن سيده . وجسرت بينه وبين امراء سوريا المشرفين على الملك الصالح ، حروب ووقائع ، انتصر فيها صلاح الدين ، ووصل في زحفه المظفر الى حلب ، لحاصرها .

ولم يجد من يحلب من الامراء وسيلة لدفع صلاح الدين عنهم ، غير الاتصال بالفرنج ، فتحرك ريمون الثالث ، امير طرابلس ليهاجم حمص ، كما تحرك فرنج انطاكية . وليثبت امراء حلب للفرنج حسن نواياهم ، واخلاصهم في التعاون معهم ، اطلقوا في عام 1176 م سراخ من كانوا في سجن حلب من الفرنج ، ومنهم ارناسط .

وكانت اماردة انطاكية قد تولاها وارثها الشرعي ، بوهمند الثالث ، فلم يجد المغامر مكانا له في انطاكية ،

وتابع سيره الى القدس . وهناك تعرف بأرملة اخرى هي (اتين دوميلتي) ، ارملة (أونفروادو تورون) (ابن الهنغري كما تسميه الرواية العربية) . وكانت هذه الائمة قد ورثت امارة شرقي الاردن ، التي يقوم فيها حصنا الكرك والشوبك ، فأعجبت هي به ، وأعجب هو بمالها وأملاكها ، التي تحتل افضل مركز جغرافي ، يسيطر على طريق القوافل ، المتنقلة بين سوريا ومصر والحجاز ، فعتدا زواجهما حوالي عام 1177 م .

لم تكن الظروف مواتية لامال ارناط واطمائه في المغامرة ، حينما كان زوجا لاميرة انطاكية . اذ كانت انطاكية محصورة بين مملكة نور الدين في الشرق ، وبين الامبراطورية البيزنطية في الشمال . وكانت انطاكية اقرب المواقع الصليبية الى حلب ، وحصونها الغربية ، فلم يكن في مقدور ارناط أن يتدفع وراء مغامراته كما يحلو له ، دون أن يكون معرضا لخطر الانتفاض عليه من المواقع الاسلامية المحدثة بأرض انطاكية . وقد رأينا كيف أن فرسان حلب كانوا أسرع من ارناط ، فاعترضوا سبيل عودته بالفنائم الى انطاكية واسروه .

كما ان الانضباط الذي كان يفرضه ملوك القدس على الامارات الصليبية الاخرى في المشرق ، كان سببا من اسباب كبح جماع المغامرين من الامراء ، والزمامم بالمعقول من التصرفات .

ولكن ما لم يكن ممكنا القيام به من المغامرات في انطاكية عام 1160 م ، أصبح ممكنا كل الامكان القيام به في جنوبي شرقي الاردن عام 1180 م ، فالملك بودوان الرابع ، أصبح ملك القدس ، وكان مصابا بالجذام ، وحالته ميؤوس منها ، وقد ضعفت الملكية ، واصبحت موضع مساومة ومنازعات بين الطامعين في السيطرة على الملك .

وفي المملكة الاسلامية كانت الظروف قد تغيرت هي ايضا ، فقد مات الرجل العديدي الارادة ، نور الدين محمود ، واصبحت خلافته موضع نزاع بين الطامعين في أن يخلفوه ، حتى تمكن صلاح الدين بعد كثير من الجهد من تثبيت اقدامه ، وفرض سلطانه على المنشقين عليه .

اما من الناحية الجغرافية فان موقع قلعتي الكرك والشوبك ، في قلب الصحراء بعيدا عن عواصم المسلمين ومراكز تجمع قواتهم ، يجعل المغامرات اكثر ربحا ، وقل تعرضا للاخطار .

واذا فقد كان زواج ارناط من اميرة قلاع شرقي الاردن ، يحق جميع الشروط المناسبة والملائمة لانطلاق مغامراته من جديد .

واخذ ارناط بيت هبونه وارصاده من الصليبيين ومن بدو الصحراء ، ليرصدوا تحرك القوافل ، ويعلموه بها ليقوم بالاغارة عليها ونهبها وسبي من فيها ، دون أن يخشى مفاجأة من جيش اسلامي قريب .

وتكررت أعمال ارناط ، وعادت عليه الاعمال بالارباح الوفيرة ، فزاد ذلك في جرانه ، وفي اطمائه ، والمسلمون لا يستطيعون الوصول اليه ، كما لا يستطيعون أن يتخلوا عن سلوك طريق الصحراء ليصلوا من سوريا وما وراءها الى مصر والحجاز .

ثم جرت اتصالات بين ملك القدس وبين صلاح الدين ، لتحقيق هدنة ، تريح الجانبين من عناء الحروب المتواصلة ، وقد كانت الهدنة ضرورية لصلاح الدين ، ليتفرغ الى تسوية مشكلات مملكته ، واستكمال وحديتها وكانت الهدنة اكثر ضرورة للصليبيين ، الذين انهكتهم الحروب ، وقلصت رقعة اراضيهم ، وأخربت ما تبقى منها في ايديهم ، كما كانت ضرورة لهم لتسوية خلافاتهم الداخلية ، وخصوصا الخلافات بين أفراد البيوتات الحاكمة ومشاكلها العائلية ، والخلاف بين منظمتي الداوية والاستبارية .

وحيثما تحققت الهدنة كان من المفروض ان تشمل مملكة القدس ، باماراتها المختلفة ومنها امارة شرقي الاردن التي يحكمها ارناط . واتصرف كل من الجانبين الى تسوية اموره مطمئنا الى قدسية العهد والمواثيق .

ولكن هذه الهدنة لم ترق لارناط ، الذي اشتد على تحقيق المكاسب والفائز من طريق المدوان على القوافل العابرة في الصحراء ، فأضمر في نفسه الغدر ، وعدم التقيد بها . واخذ يتحين الفرصة ، المناسبة للغدر ، فقد تكون الهدنة اكثر كسبا له . وبالفعل كانت .

ففي صيف عام 1181 م ، علم ارناط أن قافلة اسلامية كبيرة جدا ، قدرت الروايات ثمن ما فيها بمئتي الف دينار تسلك الصحراء مطمئنة الى الهدنة ، في حراسة عدد قليل من الرجال ، فاستعد للاستيلاء عليها .

ولما اصبح القافلة قريبة من قلعتيها ، نزل من فيها يستريحون من وعناء السفر ، وباتوا ليلتهم هناك ،

تقضي بان يتحرك الصليبيون لنجدة أرناط ، ولاهتراض
سبيل صلاح الدين أثناء هودته من مصر الى دمشق .

ولكن العقلاء ، وعلى رأسهم ريموند الثالث أمير
طرابلس ، الذي كانت تربطه بالمسلمين هدنة ، لم يروا
هذا الرأي ، وقدروا ان احتشاد الجيش الصليبي في
جنوبي الاردن ، أمر بالغ الخطورة ، لانه يترك الأراضي
الصليبية في فلسطين ، خالية من القوات ، فتعرض
بذلك لهجمات المسلمين المباغتة .

وفازت نظرية المغامرين ، اذ لم يكن بودوان في
وضع يمكنه من اتخاذ موقف حازم . فمبا الصليبيون
قواتهم ، وصاروا بها الى الكرك ، وعسكروا حولها
ينتظرون عودة صلاح الدين ، ليوقموا به . ولكن صلاح
الدين علم بمخطط الفرنج ، فخرج على رأس فرسانه
يعبّر الصحراء على خير تعبئة ، وجعل أخشاه نوري
على رأس قوة تحرس القافلة العائدة بالمتاع والمرضى
والنساء ، على ان يسيروا موغلين في الصحراء ،
ليكونوا بميدان عن متناول يد الفرنج .

وفي نفس الوقت ، الذي قرر فيه صلاح الدين
عبور الصحراء ، أوعز الى ابن أخيه فروخ شاه ، وهو
نائبه في دمشق ، بان يفتنم فرصة خلو فلسطين من
القوات ، ويضرب هناك بمنف . فخرج فروخ شاه من
دمشق على رأس قوة خفيفة الحركة ، وأسرى الى
منطقة الجليل ، فلم يشعر الفرنج ، الذين كانوا
يعملون آمنين مطمئنين ، الا والجيش الاسلامي ينقض
عليهم ، يقتل ويأسر ويسبي ويغنم ، ويخرب ، دون
ان تكون للفرنج فرصة للانتجاء الى معقل او حصن .
ثم عاد المسلمون الى منطقة السواد الواقعة شرقي
بحيرة طبرية ، يوقمون بالفرنج ويفتكون بهم .

وتقول الروايات ان فروخ شاه ، هاد الى دمشق
يسوق امامه قرابة الف أسير وعشرين ألف رأس من
الماشية . وعلم الصليبيون وهم في معسكرهم قرب
الكرك ، بما أحدثته غارة فروخ شاه من خراب ودمار ،
في منطقتي الجليل والسواد ، فقلقوا وأدركوا خطاهم
بالباع آراء أرناط وأصحابه ، فانسحبوا مسرعين الى
منطقة الجليل ، وعسكروا قرب حيون صفورية ،
بانظار ما سيقوم به المسلمون .

اما صلاح الدين فانه وصل الى دمشق في 22
حزيران (يونيو) 1182 م ، وبعد ان اطمأن الى وصول
أخيه نوري والقافلة سالمين الى دمشق ، هاد بقواته
الى حدود مملكته مع فلسطين المحتلة ، وعسكر في

فلم يشعروا الا وأرناط ورجاله ينقضون عليهم ،
ويمعنون فيهم قتلا وأسرا ، فنجوا منهم من سبق
فرسه ، ووقعت القافلة في ايدي أرناط . ووصل
الناجون من رجال القافلة الى دمشق يقصون على
صلاح الدين أخبار الغدر الفرنجي ، فانزعج صلاح
الدين وأدرك ان وجود قلاع صليبية على الطريق بين
شقي مملكته ، أمر بالغ الخطورة ، وانه لا بد من القضاء
عليها اذا أريد للمملكة ان تزدهر وتماسك .

وانزعج الصليبيون في القدس كثيرا ، وخصوصا
الملك بودوان الرابع ، الذي ألح عليه المرض وأنهكه ،
فقد تعود أسلافه تشريف تمهيداتهم ، والحفاظ على
مهودهم ، كما تعودوا ان يتقوا بمهود المسلمين
وموايقهم ، وأسرع يكتب لأرناط يلومه على هذا الغدر
الذي يظهر الصليبيين بظهر المغامرين الذين لا يتقيدون
بعهد ولا ميثاق . وطلب اليه ان يعيد ما وقع بأيديه
من المغانم الى المسلمين ، وان يطلق سراح الاسرى .
فسخر أرناط من الملك ، وأعلن رفضه الاستجابة
للطلب . فعاد الملك وأرسل اليه وفدا من رجال
الدين ، ومن فرسان الاستتارية ، يلحون عليه في ضرورة
امادة الاسرى والمغانم ، الى المسلمين ، للابقاء على
الهدنة القائمة ، فلم يكن رد أرناط على الوفد بأفضل
من رده الاول . وسخر من الملك ومن سلطانه عليه .

وأراد صلاح الدين ان تستمر الهدنة قائمة ،
فكتب الى بودوان يعرفه بالواقعة ، ويستنكر تصرف
أرناط ، ويطلب اليه التدخل لامادة الاسرى والأموال .
فلم يجد بودوان ما يرد به على صلاح الدين فيسر
الامتداع بأنه لا يستطيع عمل شيء مع تابع لا يحترم
عهدا ولا هدنة .

وحيثما تلقى صلاح الدين هذا الرد ، اعتبر
الهدنة غير قائمة ، وياشر الحرب من جديد .

وهكذا وجد الصليبيون انفسهم مسوقين برؤمهم
وراء المغامر ، لان غارات المسلمين لم تقتصر على أرض
أرناط .

وفي عام 1182 م ، ذهب صلاح الدين لمصر ،
ليستغند شؤونها ، ولما علم الفرنج بذلك ، عقدوا
مجلسا حريبا بحضور بودوان ، لمناقشة الموقف .
وقد ارتأى المغامرون من انصار أرناط ، ان صلاح
الدين ، سيعود على رأس قوات ، وانه سيهاجم معاقل
أرناط في الكرك والشوبك ، لينتقم منه ، وان الحكمة

منطقة القحوانة ، قرب سمخ ، قلم يجرؤ الصليبيون على دخول المعركة معه . لانهم كانوا يدركون حقيقة تفوقه عليهم بقواته وبموارده وبانضباط جيشه ، بينما كانت الفوضى والنزاعات الداخلية ، تنخر في جسم الكيان الدخيل .

وبث صلاح الدين سراياه في المنطقة تميث فيها
تحت سمع الجيش الصليبي وبصره ، دون أن يجرؤ على التعرض للمسلمين . وبلغت سرايا المسلمين بيسان وجنين تقتل وتخرب وتحرق ، لعلها تدفع الفرنج الى المعركة ، ولكن الصليبيين لبثوا ساكنين لا يتحركون . واخيرا اطم الجنود صلاح الدين ان ازوادهم قد نفذت وان مقامهم قد طال ، فقرر صلاح الدين الانسحاب الى دمشق ، بعد ان تاكد من ان الفرنج لن يجازفوا بدخول الحرب .

اغرت ارناط انتصاراته المحدودة على القوافل العابرة في الصحراء ، نجمته يفكر بامور لم تخطر لغيره على بال ، لما فيها من خطر ايقاظ نقمة العالم الاسلامي كله ، ودفع المجاهدين الى التدفق على ميدان المعركة للقضاء على الخطر المهدد لمقدساتهم .

ويقول المؤرخون ان ارناط ، قد بلغ تيماء في عام 1181 م ، في احدى اتدفاعاته في الصحراء ، وتيماء تقع في قلب الجزيرة العربية ، وانه كان ينوي التوجه من هناك الى المدينة المنورة لمبايعتها ، والامتداد على قبر النبي عليه السلام ، ولكن هجوما قام به فروخ شاه على حصون ارناط في شرقي الاردن ، اضطره الى الارتداد مسرعا ، مخافة ان يباغته في الصحراء .

وقدر ارناط انه اذا تمكن من الاستيلاء على (ابلا) على خليج العقبة ، فانه يستطيع ان ينشئ اسطولا يسيطر على البحر الاحمر ، ويتحكم بموانئ المسلمين فيه ، وبالتالي فانه يستطيع الوصول الى الاماكن الاسلامية المقدسة في مكة والمدينة ، والايقاع بالمسلمين وهم في موسم الحج .

وبالفعل نفذ المقامر مخططه ، فانشا قوارب في مستقلان والكرك ، ونقل اجزاءها مفككة على ظهور الجمال فجمعها في خليج العقبة ، وقذف بمراكبه في البحر ، وبينما اتجهت قوة صليبية تحاصر ابلا ، اتجهت المراكب الاخرى عبر خليج العقبة الى البحر الاحمر ، ومن هناك سارت الى الموانئ الاسلامية الآمنة التي لم تكن تتوقع ان ترى مراكب صليبية ، فاخذت في نهبها ، والاعتداء عليها ، كما مرضت

للمراكب الاسلامية الماخرة في البحر الاحمر ، فاوقعت بها ، ونهبت العديد منها . وكان اول ميناء ظهر الفرنج امامه هو ميناء (عيداب) ، تجاه ميناء جدة ، ثم انتقل الفرنج الى الموانئ الحجازية فيبرون عليها ، حتى بلغوا ميناء الحديدية قرب ينبع ، ومنه اتجهوا الى راينج شمالي جدة ، ينهبون ويقتلون ويأسرون ، ثم ارسوا مراكبهم في الجوراء قرب راينج ، ونزلوا الى البر يعيشون فيما حولها ، ويعدون عدتهم للايقاع في داخل الارض المقدسة والوصول الى مكة ، للايقاع بالحجاج المجتمعين فيها .

ولفق العالم الاسلامي لهذه الجراة التي لم يكن احد يتوقعها ، واضطربت نفوس الحكام ، وجاشت نفوس المسلمين بالغضب ، كيف تجرؤ شرادم طارئة على مشرقنا التسامح ، فتفكر في تدنيس المقدسات وترويع الامنين اللاندين ببيت الله وحرمة .

وكان اسرع الجميع استجابة لنداء الواجب هو الملك العادل ، شقيق صلاح الدين ونائبه في مصر ، فجهز اسطولا عهد بقيادته الى امير البحر حسام الدين لؤلؤ ، وكلفه بملاحقة الفرنج وردهم عن مقدسات الاسلام . فخرج لؤلؤ مسرعا ، يتبع الفرنج ، ويستقصي اخبارهم ، فادركهم وقد نزلوا بالحروراء ، فاستولى على مراكبهم الراسية ، ثم نزل ورجاله الى اليابسة ، لقتال الفرنج الهابطين على الساحل . ولما راي الفرنج فرق سفنهم ووقوعها في ايدي المسلمين ، انقطع املهم في النجاة بها ، فلجأوا الى شعاب الجبال القريبة من الساحل ، فلحق بهم لؤلؤ وقائلهم في شباط (فبراير) 1183 م ، قتالا شديدا حتى افناهم ، واخذ من تبقى منهم حيا اسيرا . فأرسل بعضهم الى منى لينحروا فيها كالاضحي يوم عيد الاضحى ، امام الحجاج ، لتطمئن خواطر الناس ، وليعلموا ان قادة المسلمين لا يمكن ان يتهاونوا مع من يدنس مقدسات الاسلام ، فنحروا هناك يوم العيد ، والناس من حولهم يهللون ويكسرون .

اما الباقون من الاسرى ، فقد سيقوا الى مصر ، فأمر صلاح الدين بضرب اعناقهم جميعا لكيلا يفكر احد منهم في العودة مع حملات اخرى على الطريق .

لم يكن صلاح الدين يجهل اهمية الخطر الذي يشكله على الاسلام عامة وعلى مملكته بصورة خاصة ، وجود الصليبيين في سوريا ، وخصوصا وجودهم في شرقي الاردن وجنوبي فلسطين . ولكن هذا الوجود

وفي اليوم التالي سار صلاح الدين ونزل على جبل غربي طبرية ، ولبت هناك ينتظر تعرف الفرنج ليقاثلهم ، ولكن الفرنج كانوا مختلفين فيما بينهم حول ما يجب عمله تجاه صلاح الدين . فقد مات الملك بودوان الرابع غير مخلف عقباً ، وأوصى بالملك الى ابنة اخت له ، تزوجها رجل ضعيف الشخصية ، عرف باسم (جي دولوزينيان) فأصبح ملكاً على القدس ، وقد أحدث ارتفاع (جي) العرش انشقاقاً في صفوف الصليبيين ، يضاف الى الفوضى القائمة بينهم .

ولما اجتمع الفرنج في صفورية ، ونزل صلاح الدين على طبرية ، اقترح المغامرون مهاجمة صلاح الدين لفك الحصار الذي ضربه على مدينة طبرية ، وكانت طبرية ملكاً لزوجة ريموند الثالث أمير طرابلس ، وكان ريموند أكثر الصليبيين خبرة بالحرب ، وأبعدهم نظراً ، وأكثرهم ادراكاً للواقع الصليبي ، وتقديراً لقوة صلاح الدين ، فكان رآيه أن لا يخاطر الفرنج المتفسخون بالاشتباك بالمسلمين ، وهم أكثر ما يكونون قوة ، وتصميماً على سحق العدوان ، والانتقام من محاولة تدينس مقدساتهم . لذلك اترض على رأى القائلين بضرورة الاشتباك بصلاح الدين ، وقال لهم أن طبرية ملك لزوجته ، وأن زوجته وأبنائها موجودون في طبرية ، وأنه إذا أحدث مكروه لطبريا فإن المكروه سيصيبه قبل غيره ، ومع ذلك فإنه يفضل أن يضحي بزوجته وأبنائه وبعض املاكه ، على أن يقامر بمستقبل الممالك الصليبية في المشرق ، فسخر منه المغامرون ، واتهموه بالخيانة والتواطؤ مع المسلمين ، وتطاولوا عليه ، ولما اقنعوا الملك بضرورة السير الى طبريا لفك الحصار ، وترحيل المسلمين عنها ، لأنه ليس من الشهامة ولا الرجولة في شيء ترك الأميرة لمصيرها تدافع وحدها من طبرية .

جرت تلك المناقشات في المعسكر الصليبي في صفورية ، قبل أن يتحركوا من مواقعهم . ولما رأى صلاح الدين الفرنج لا يتحركون ، ترك قوة في المرتفعات ، لمواجهة الفرنج ان تحركوا ، ونزل مسرماً مع قوة خفيفة الحركة ، فهاجم طبرية واستولى عليها سريعاً ، وأسر وقتل وفنم ، ولجأت الأميرة ومن نجا من المعركة ، الى القلعة يتابعون المقاومة ، فحارب صلاح الدين حصاراً حول القلعة ، ولبت ينتظر رد فعل الصليبيين في صفورية .

ولما علم الفرنج بما حل بطبرية ، ارتفعت اصوات المتطرفين ، واقنعوا الملك بضرورة السير لانتقاذ

كان قبل صلاح الدين ، وكان من الممكن أن يستمر ، دون أن يشعر صلاح الدين بأن اقتلاهم ضرورة ملحة لا يمكن تأجيلها . ولكن مغامرات ارناط في نقض الهدنة وسلب الحجاج والقوافل ، وقطع الطريق بين سوريا ومصر والحجاز ، ومحاولاته لتدينس مقدسات المسلمين ، وترويع أهل الارض المقدسة ، ومن يؤمها من الحجاج المسلمين ، كل ذلك اقنع صلاح الدين ، أنه لا بد من القضاء نهائياً على هذا الخطر المهدد ، في أسرع وقت ، واجتثائه من جذوره ، لكيلا تبقى له في أرضنا باقية . فشرع من ساعد الجد ، وأقسم على أنه سينتقم بنفسه من ارناط ، وأنه سيقتله بيديه ان ظفر به ، وقد مكته الله من ذلك .

وتتالت حملات صلاح الدين على قلاع ارناط ، خلال الايام التالية ، وحاصره أكثر من مرة في قلعة الكرك وضيق عليه ، فكانت الجيوش الصليبية تتجمع في كل مرة ، وتسير لنجدة الكرك ، ولكنها كانت ترفض الدخول في المعركة مع المسلمين ، لأنها كانت تدرك أنها ليست كفءة لصلاح الدين وجيشه .



وحيثما حل عام 1187 م ، (583 هـ) ، اهتزم صلاح الدين الدخول في معركة فاصلة مع الفرنج ، فصرف همه لتسوية خلافاته مع اتباعه وجيرانه المسلمين ، كما طلب الى نائبه في حلب وحماه ، بمهادنة الفرنج في امارة انطاكية ، (اما طرابلس فكان أميرها قد دخل منذ زمن بعيد في حضي صلاح الدين وهادنه) . ولما تحقق الصلح بين المسلمين وبين فرنج انطاكية في ايار (مايو) 1187 م ، (اواخر ربيع الاول 583 هـ) . اخذ السلطان في جمع القوات ، واستدعى تابعيه من الامراء في الجزيرة وديار بكر والموصل ، واستدعى قوات من مصر وحلب وحمص وحماء ، وخرج هو من دمشق الى مشترا (في حوران) ، واقام هناك ينتظر اجتماع الجيوش عليه . ولما تكامل اجتماعها ، استمرضها في منتصف ربيع الآخر 583 هـ ، وعباها تمبشة القتال ، وسار بها يوم الجمعة في 17 ربيع الآخر ، حتى نزل جنوبي بحيرة طبرية عند قرية الصنبرة .

وكان الفرنج قد علموا باجتماع الجيوش على صلاح الدين ، فأسرعوا بجمع قواتهم ، وحسروا قرب عيون صفورية ، في الجليل ، ينتظرون التعرف على مرامي خطة صلاح الدين .

الاميرة ، فتحرك المعسكر الصليبي كله ، نحو المسلمين
رغم معارضة ريموند واحتجاجاته .

ولما علم المسلمون بتحريك الفرنج أرسلوا يخبرون
صلاح الدين ، وكان هذا بالضبط ما قصده هو من
مهاجمة طبرية ، وهو ان يستثيرهم ، وان يدفعهم الى
قبول الدخول في المعركة معه . فترك قوة من رجاله في
طبرية تتابع حصار قلعتها ، واسرع هو بمن معه الى
المرتفع ، حيث ترك مصكروه ، فوصله مساء الخميس
في 22 ربيع الاخر . وبعد قليل وصل الصليبيون ،
واقاموا معسكرهم تجاه المسلمين ، ولم يجر قتال في
ذلك اليوم .

وفي صبيحة يوم الجمعة 23 ربيع الاخير 583 هـ
(تموز 1187 م) ، اشتبك الفريقان في قتال عنيف في
ارض اللوية ، دام طوال النهار ، وكان الحر شديدا ،
ولم يكن حول المعسكر الصليبي ماء يمسون اليه ،
وحاولت قواتهم اكثر من مرة ان تشق طريقها الى
طبرية لتستقي ، ولكن المسلمين كانوا يردونها ، بعد
ان ادركوا غايتها .

وبات الفرنج عطاشا ، والمسلمون من حولهم
يطوفون بمعسكرهم ، يرمونهم بالنبال طوال الليل ،
حتى لم يتركوا لهم فرصة للراحة .

وذكر الجانبان يوم السبت الى القتال ، والفرنج
قد انهكهم التعب والعطش والحر ، وجرى عراك رهيب ،
وصبر الفريقان صبورا عجيبا ، وراى ريموند ان المعركة
اصبحت خاسرة ، وانه لم يعد لهم امل في نصر ، فحمل
بمن معه من الفرسان حملة مستقتل يريد النجاة ،
فامر قائد الفرسان تقي الدين عمر ، رجاله بان يفسحوا
لهم المجال ، فخرجوا من المعركة ، وتابعوا طريقهم
الى صور . فاضعف خروج قوات طرابلس ، من عزائم
المقاتلين ، وحاولت فئة اخرى منهم النجاة ، فلاحقهم
المسلمون وابدوهم .

اما الملك (جي) ومن تبقى معه ، فانهم لم
يجدوا لهم مهربا ، فانحازوا الى تل حطين ، وتحصنوا
فيه ، فاحاط بهم المسلمون ، وتجدد القتال على اشد
ما يكون هنفا حول التل . واستمر حتى تمكن المسلمون
من الوصول الى خيمة الملك فاخذوه اسيرا ، واسرع
ارناط يلقي بسلاحه مستائرا ، وفعل غيره مثل فعله .
وانتهت المعركة مساء السبت باسر الملك واسر ارناط

الذي اثارت مغامراته الحرب ، وفيره من الزعماء
والقسادة .

ولما انتهى القتال ، جلس السلطان المنتصر ، في
خيمته فرحا مسرورا ، بما افاء الله عليه من نصر ،
وجلس من حوله كبار القادة والامراء ، واستدعى اليه
الاسرى ، فاحضر الملك وارناط ، وقد هددهما
العطش ، فامر صلاح الدين للملك بشربة من ماء مثلج
فتناول الكوب وشرب منها ، ثم ناولها لارناط ، وكان
بجانبه ، فشرب ارناط وصاح صلاح الدين في الترجمان
ليقول للملك الاسير ، انت الذي سقى ارناط وليس
انا . وكانت الاعراف تقضي بان الاسير اذا نال من
طعام آسره ، او من شرابه لم يعد يجوز له قتله . وقد
سبق لصلاح الدين ان اقسم بانه اذا ظفر بارناط
ليقتلنه بيديه ، وقد تسبب ارناط بمغامراته وجرائمه ،
وخياناته لليهود والموائيق ، بهذه الحرب الطويلة
المتواصلة ، ولم يصبر صلاح الدين على الاستمرار في
الحرب الا ليظفر بارناط ، ليجمله عبرة لكل غادر
مغامر .

ولم يشأ صلاح الدين ان يقتل ارناط بحضور
(جي) ، فآخرجهما من مجلسه ، ثم استدعى ارناط ،
وعنفه على محاولاته تدنيس المقدسات الاسلامية ،
وذكره بما كان منه نحو رجال القافلة الذين غدر بهم في
وقت الهدنة والسلم ، وسخر منهم ومن دينهم ونبيهم ،
حينما ناشدوه الله ، وذكروه بالصلح القائم بين
المسلمين والفرنج . ثم قام اليه صلاح الدين ، وقال له
ها انا انتصر لدين محمد ، واستل سيفه وضربه به
على كتفه فحله ، وقام من حضر بالا جهاز على ارناط ،
ثم حملوه الى باب الخيمة والقوه ، ولما راى (جي)
صاحبه قتيلا جزع ، وخاف مثل مصيره فاستحضره
صلاح الدين ، وطيب قلبه وهذا روعه وقال له : (لم
تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك ، واما هذا فانه تجاور
حده ، فجرى ما جرى) .

واثر معركة حطين بدأت تنهاى المدن والقلع
التي كانت للصليبيين ، في ايدي صلاح الدين ، وتابع
من خلفه خطته في العمل على اجثثات جذور الدخلاء ،
حتى تمكنوا بعد قرابة مائة وعشر سنين ، من يوم
حطين ، من القاء آخر الصليبيين في البحر . ولم
تستطع النجدات الكثيرة التي تلقاها الصليبيون من
اوروبا من ان تمنع زوال كياناتهم ، الذي قام في غفلة من
الدهر ، بالمدوان والقهر والغدر .